الطبيعة البشرية

محمد سعد زغلول سالم

٢٤ أغسطس ١٩٧١

١. تمثل محاولة فهم الطبيعة البشرية معضلةً فكرية ماتزال ـ وستظلُّ ـ مستعصية على الفهم الكامل رغم بدء التفكير فيها منذ البدايات الأولى لتدبُّر الإنسان فى نفسه رُبما منذ آلاف السنين كما تكشف عن ذلك الكثيرُ من الأحداث المكتوبة فى كتاب الموتى الفرعونى التى تتضمن إعتقاداً جازماً بوجود روح للإنسان تسكن داخل جسده ويتم محاسبتها بعد الموت أمام محكمة العدل التى تتكون من آلهة عديدة) أوزير وماعت وتحوت .. الخ(حيث يتم وضع قلب المتوفى ـ تعبيراً عن هذه الروح ـ فى كفة ميزان الحساب اليسرى فإذا رجحت كفته كان هذا دليلاً على غلبة أعماله الحسنة على السيئة فيفوز بالحياة فى جنة أرضية ـ كانوا أحيانا يدعونها ايارو ـ وإذا حدث العكس فمصيره إلى عذابٍ تتعدد أشكاله من إلتهام الحيوانات المفترسة له إلى مكوثه فى حفرة من النار فى قبرٍ مظلم .. الخ.

٢. لم يتوقف تفكير الإنسان فى كُنْهِ طبيعته وفى محاولاته الدؤوبة لتحليلها ولفهمها عبر هذه الآلاف من السنين حتى الآن وإن إختلفت طرق ومناهج هذا الفكير تبعاً للظروف المختلفة والمتغيرة والمتميزة التى يحيا فيها ويستند إليها كلٌّ مَنْ يخوضُ فى عباب هذا الأمر. وقد تبلورت هذه الطرق والمناهج التفكيرية فى الطبيعة البشرية فى أربعة أشكال رئيسية هى : المنهج الخُرافى والمنهج الفلسفى والمنهج العلمى والمنهج الدينى تميز كلُّ شكلٍ منها بمدىً واسع وتاريخ طويل من الإختلاف والتدرُّج والهيمنة والأفول.

٣. أدى التقدم الحضارى فى العصور الحديثة إلى الإختفاء شبه الكامل للمنهج الخرافى فى محاولة فهم الطبيعة البشرية كما أدى التقدُّم العلمى بدَوْرِه إلى إنحسار المد الفلسفى الذى كان ـ منذ ظهوره وتأسيسه فى عقول فلاسفة اليونان وغيرهم من الفلاسفة فى أرجاء المعمورة حينذاك ـ طاغياً على معظم إن لم يكن جميع محاولات العقل البشرى فى فهم ظواهر الحياة والكون والوجود وعلى رأسها الطبيعة البشرية. وهكذا إقتصرت ـ أو تكادُ تقتصر ـ المناهج الفكرية التى تهتم بمحاولة فهم وتحليل الطبيعة البشرية فى زمننا الحاضر على المنهج العلمى أى المنهج الذى يستند إلى المعطيات المادية القابلة للملاحظة والتجريب والتحليل والقابلة للإعادة وإعطاء نفس النتائج تحت نفس الظروف والمنهج الدينى أى المنهج الذى يستند إلى الإيمان اليقينى فى حقائق الإعتقاد التى يؤمن بها من يتبع هذا المنهج.

٤. شكلت ثنائية (المادة ـ الروح) نقطة خلافٍ رئيسية بين هذين المنهجين الذين إتفقا على كون المادة ـ ممثلةً فى جسد الإنسان ـ مكوناً أساسياً فى الطبيعة البشرية ولكنهما إختلفا فيما يختصُّ بالروح التى يعتبرها المنهج الدينى مكوناً أساسياً فى الطبيعة البشرية بينما لا يعتبرها المنهج العلمى كذلك ليس من منطلق الإنكار لوجودها

ولكن لعجزه عن إخضاعِها لمنهجه فى الملاحظة والتحليل والتجريب بحكم خصوصيتها التى لا سبيلَ للعقل إلى سبْر أغوارِها وخصائصها بحكم صفاته وتكوينه.

٥. لا يستطيع المنهج العلمى السليم الذى يلتزم بالمنطق والحِيدَة إنكارَ وجود الروح فى الطبيعة البشرية وإن إختلفت تسمياتُه لها فى سياق تعليلِه للظواهِر التى لا يستطيع تفسيرَها عند ملاحظته وتحليله وتجريبه للجسد البشرى .فالنظام المُعْجِزْ فى تركيب الجسد البشرى بدءاً من المادة الوراثية الموجودة فى كل خلية من خلاياه وإنتهاءاً بأعضائه الكبرى والإنتظام فائِقْ الدقة فى تأدية كلُ مكون من هذا الجسد لوظائفِه كلاهما أمرُ يستحيلُ تحقيقه أو القيام به أو الحفاظ عليه بمحض الصدفة أو بطريقةٍ ذاتية التكرار أو بسيطرةٍ وتحكُم وتوجيه من جماداتٍ لا تعقل أو تدرك مثل الذرات والجزيئات التى يتكون منها هذا الجسد. ولذا فإن المنهج العلمى السليم فى مجال دراسة الطبيعة البشرية لا يجد مفراً من ضرورة التسليم والإقرار بحتمية وجود شىء أو أمر أو نظام أو قوة أو .. الخ خلاف الجسد البشرى فى الطبيعة البشرية تهيمن عليه وتحدد له نظام تركيبه وكيفية عمله وإن كان هذا الـ (شىء أو أمر أو نظام أو قوة أو .. الخ) غير قابل للخضوع للمنهج العلمى الذى يستلزم الملاحظة أو التحليل أو التجريب للوصول إلى الحقيقة. وهذا الوجود الغامض الذى يعجز المنهج العلمى عن تحديده أو توصيفه هو ما يصِفهُ المنهج الدينى بأنه الروح التى تكون المكون الثانى للطبيعة البشرية فى ثنائية (المادة ـ الروح.

٦. رغم بساطة ومنطقية ما تتضمنه السطور السابقة من أفكارٍ وإجتهادات فى محاولة فهم الطبيعة البشرية إلا أن التمعُن فى تفسير هذه الطبيعة إستناداً إلى المنهج الدينى فى ضوء ما جاء بالقرآن الكريم من عقائد يُشيرُ ـ كما أظنُ وكما دَرَجْتُ فى التفكير على هذا النحو فى هذا الشأن منذ زمانٍ بعيد ـ إلى أن الفهم الصحيح للطبيعة البشرية قد يقتضى منا إعادة النظر فى هذه الثنائية التركيبية (المادة ـ الروح) وإعتبارها ثلاثية تركيبية (المادة ـ الروح ـ النفس) لأسبابٍ عديدة يمكن توضيحها إجمالاً كالآتى :

أولاً : خلق الله البشر من طين (مادة).

ثانياً : نفخ الله من روحه فى مَن خلق من البشر (الروح).

ثالثاً : جعل الله لِكل مَن خلق من البشر (نفس).

وقد أوضح الله فى القرآن الكريم الكثيرَ من خصائص هذه النفس مما يجعل من المحال إعتبارِها جزءاً من الروح أو مماثلةً لها أو شبيهةٍ بها أو منبثقةً من نفس معينها حيث أنها ـ خلافاً للروح التى هى من عند الله ـ قد تكون أمارة بالسوء وقد تكون تقيةً أو فاجرة تبعاً لمشيئة الله لها.

